مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

e-ISSN: 2600-8394 **VOL. 4. No. 3** **July (1441-2020)**

التصوف بِدْعَةٌ ضَلالَةٌ؟ أم سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ؟

Sufism delusion heresy? or follow Sunnah?

محمد نادر علي[1] أنس القاسم[2]

Mohammad Nader Ali Anas Kasem

ملخص

بعض علماء المسلمين ينكر منهج التصوف جملة وتفصيلاً؛ فيعيب سلوكهم وطريقتهم ورموزهم، وينسب إليهم البدع والضلالات، كما ينكر عليهم تعلقهم بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، ويجحف بالحكم عليهم، فعدهم من الفرق الضالة الخارجة من الملة، ويتهمهم بالزندقة والكفر، وعقيدة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وهي مذاهب فاسدة مكَفِّرة. وفريق آخر من العلماء يعتبرهم من خيرة الأمة وأفاضلها، فيرفعونهم إلى منازل الصديقية ومراتب الولاية، من غير تمييز بين الولي الصدوق والمدعي الكذوب. فهذا مسفِّه مكفِّر، وذاك مقدِّس مبجِّل. والحق: إن التصوف اسم شامل واسع، يتجمع تحت مظلته الشتات من أصناف الناس؛ فينتسب إليه الخيرة الصالحة من الأئمة الأعلام، والأفاضل الكرام، من أهل الحق والإحسان؛ الذين يباهي الله بهم ملائكته، كما يدعي الانتساب إليه كثيرون من الزنادقة الفجرة، فيحملون شارته وشعاره، وهم من أسافل الخلق وأراذلهم، ينتهكون الحرمات، ويستحلون المحرمات، عقيدتهم زائغة، وسلوكهم منحرف فاسد، يتبعون الهوى، وينتهجون الضلال. ما حكم الإسلام في التصوف؟ ما سبب تسميته، ما طرقه ومدارسه؟، ما أثره في حياة الفرد والمجتمع. ذلك ما أردت بيانه وتجليته في هذه المقالة، وقد قسمته إلى مقدمة وتمهيد وخطة بحث وخاتمة، كما سيأتي.

الكلمات المفتاحية: تصوف – بدعة ضلالة – سنة – حقيقة – طريقة

1 أستاذ مساعد بكلية الالهيات بجامعة كارابوكر تركيا muhammetnadirali@karabuk.edu.tr

2 طالب دكتوراة بكلية الالهيات بجامعة كارابوكر تركيا. anaskasem@karabuk.edu.tr

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

e-ISSN: 2600-8394 **VOL. 4. No. 3** **July (1441-2020)**

Abstract:

Some Muslim scholars deny the method of Sufism altogether and in detail, " so their behavior, method and symbols are defective, and their families attribute heresies and delusions, and they deny their attachment to weak and fabricated hadiths, so they count them from misguided sects outside the religion, and accuse them of heresy and disbelief, the doctrine of solutions, unity and unity of existence, they are corrupt doctrine atonement another group of scholars considers them among the best and virtues of the nation, and they raise them to the sidiqi level and ranks of highest status, without distinguishing between the righteous guardian and false claimant, for this is a blatant blasphemy and that holy revered. The truth: Sufism is a comprehensive and broad name, which brings together the diaspora of the kinds of people, so that the good and righteous people are affiliated with the nation of scholars, and the honorable distinguished, from the people of truth and benevolence of whom (God-الله)boasts his angels, as the affiliation claims, to whom are many of the heretics of immorality, and they are among the lowest of creation and their humiliation violates and sanctities, and they accept the prohibitions, their false beliefs and their perverted behavior is corrupt, they fellow whims and follow deception.What is the ruling of Islam in Sufism? What is the reason for its name, what are its ways and schools? What is its impact on the life of individuals and society? That is what i wanted to clarify and manifest in this article, and i have divided it into an introduction and preface and research plan and conclusion as will be mentioned below.

Keywords: Mysticism - Heresy misguidance- Sunnah -Truth-Path.

المقدمة

لايزال الجدل قائما بين علماء الأمة وعامتها في حقيقة التصوف الإسلامي، أهو بدعة ضلالة؟ أم هو سُنَّة متَّبعة؟ هل أتباع التصوف هم فرقة منحرفة بعيدة عن الملة الحنيفية السمحة؟ أم هم أهل سنة وجماعة، متبعون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في كل أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم؟ ما حقيقة التصوف وما منهجه؟، وما أهميته وما أثره في حياة الفرد والمجتمع؟، ما السني منه، وما البدعي؟ تساؤلات تتكرر على مدى العصور، والإجابات عنها من العلماء شافية كافية، لا يجحدها إلا معاند مستكبر. وسنحاول في هذه المقالة تجلية حقيقة التصوف في ضوء الكتاب والسنة، وبيان منهجه بشهادة المنصفين من العلماء الأعلام.

كما نقدم نموذجاً لأحد أعلام التصوف (**الشيخ عبد القادر الجيلاني**) الذي يمثل التوسط والاعتدال لهذا المنهج الإسلامي القائم على العلم والفقه، والاتّباع والتأسي، والوقوف عند حدود الشرع في الأمر والنهي.

أهمية البحث

في غمرة الانشغال بالحياة ومتطلباتها، وسكرة المعيشة وتداعياتها، وإقبال الناس على الدنيا، وسعيهم الحثيث في تكاليفها ومتطلباتها، تضعف الروح، ويغشاها الران، وتغمرها الغفلة، وتعمى القلوب التي في الصدور، وتصدأ كما يصدأ الحديد، ويذهل الإنسان عن هدفه الأسمى، وغايته العظمى، التي ما خلق إلا لأجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

لذلك كان لابد من البحث عن السبيل الموصل إلى صفاء الروح وتنقيتها، ومعرفة الدواء الناجع لعلاج أمراضها وعيوبها، وليس من ترياق مجرب مثل التصوف وسلوك طريقه، ومعرفة نهج رجاله الصادقين.

مشكلة البحث

- هل الصوفية فرقة من الفرق الإسلامية الضالة؟
- وهل التصوف مذهب مضاف إلى المذاهب الإسلامية المنحرفة؟
- ماذا يمثل التصوف في الفكر الإسلامي؟
- ما لفرق بين التصوف الشرعي والتصوف البدعي؟
- ما أثر التصوف في ترقية الفكر وتزكية النفس؟

منهج البحث

سلكت في هذا البحث منهج الاستقراء والاستنباط؛ لإبراز دور التصوف في صقل النفوس وترقيتها، وصفاء القلوب ونقائها، ونهضة الأمة ورفعتها، وأثره في تصحيح المسار، وملء الفراغ، وعلاج الخواء الروحي، الذي يعاني منه الجيل المعاصر. وقد راعيت في بحثي الأساسيات الآتية:

— الرجوع إلى المعجمات اللغوية للتعريف ببعض المصطلحات والمفردات الغريبة.

3 سورة الذاريات: 51/ 56.

- عزو الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى مواطنها في القرآن الكريم.
- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وإرجاع كل حديث إلى الكتاب الذي ورد فيه، مع ذكر درجته صحة أو ضعفاً.
- عزو كل اقتباس من خبر أو أثر إلى مصدره أو مرجعه.

التمهيد

يعد التصوف الإسلامي الصحيح مدرسة روحية، تجسد حقيقة الدين الحنيف، الذي يوجه المخلوق إلى خالقه، ويصل العبد الصادق بربه، ويبلغ به مراتب الكمال، فينعم بالوصال، ويهنأ بالاتصال؛ كما وصفه أهله بأنه روح الدين وحياته، يدفع الإنسان لتذوق لذة العبادة، ويشعره بسعادة المعرفة، فيعيش حياته سعيداً في السراء والضراء؛ يتحقق بقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».[4] كما يمثل التصوف حقيقة التدين؛ فيجعل المؤمن نقياً صافياً، فلا حقد، ولا عداء، ولا حسد، ولا بغضاء، ولا كراهية، ولا شحناء، ينعم بحقيقة العبودية لله، وأنس المراقبة والمناجاة، ويعيش مع الخلق، بالحب والوفاء، والود والإخاء. ولعل منهج التصوف هو السبيل الأمثل للارتقاء بالأمة، ورفع رايتها وعلو منزلتها، ولو التزم الناس في زمننا هذا منهج التصوف الحق، لارتقوا إلى مراتب الكمال ومصاف الصحابة الكرام.

تعريف التصوُّف واشتقاقه لغة:

يقول الزمخشري في (مادة: ص و ف): (فلان يلبس الصوف والقطن، أي ما يعمل منهما. وكبش صاف وصوفاني ونعجة صافة وصوفانية: كثير الصوف. وصاف الكبش يَصوفُ ويُصافُ صَوْفاً. " ولا أفعل ذلك ما، بلّ بحرٌ صُوفةً ". ويقال: كان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات، أي يفيضون بهم، ويقال لهم: آل صوفان وآل صفوان وكانوا يخدمون

4 النيسابوري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ج4، ص 2295، رقم 2999.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 4. No. 3 July (1441-2020)

الكعبة، ويتنسّكون ولعلّ الصوفية نسبوا إليهم تشبيهاً بهم في النسك والتعبد، أو إلى أهل الصُّفَة، فقيل: مكان الصفِّية الصُوفيَّة، بقلب إحدى الفاءين واواً للتخفيف، أو إلى الصوف الذي هو لباس العُبَّاد، وأهل الصوامع). [5]

وفي المعجم الوسيط: (مادة: ص و ف) تصوف فلَان صَار من الصُّوفِيَّة، (التصوف) طَرِيقَة سلوكية قوامها التقشف، والتحلي بالفضائل، لتزكو النَّفس وتسمو الرّوح. و(علم التصوف) مَجْمُوعَة المبادئ الَّتِي يعتقدها المتصوفة، والآداب الَّتِي يتأدبون بهَا، فِي مجتمعاتهم وخلواتهم. (الصُّوفِي) من يتبع طَرِيقَة التصوف، والعارف بالتصوف، وَأشهر الآراء فِي تَسْمِيَته، أَنه سمي بذلك لِأَنَّهُ يفضل لبس الصُّوف تقشفًا[6].

تعريف التَّصوُّف والصوفي اصطلاحاً:

ولتعريف التصوف اصطلاحاً نرجع إلى العلماء من أهل التصوف لنعلم من أين اشتق اسم الصوفي والتصوف. قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري- رحمه الله تعالى-: (التصوف: علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية).[7]

وقال الشيخ أحمد زروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه، والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول علم التوحيد لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك. قال الإمام الجنيدرَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني"[8]. وقال بعضهم: "التصوف كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد

5 الزمخشري، محمود بن عمرو، **أساس البلاغة**، تحقيق: باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية 1998م)، ج1، ص546.

6 إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إستانبول: دار الدعوة، د.ت)، ج 1، ص 529.

7 الأنصاري، زكريا بن محمد، **على هامش الرسالة القشيرية** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت)، ص7.

8 المدني، مصطفى بن إسماعيل، **النصرة النبوية**، طبع بهامش **اتحاف السادة المتقين** للزبيدي المرتضى، (القاهرة: مطبعة الشرفية 1316ه)، ص 22.

4 المصدر السابق، ص22.

5 الكلا باذي، محمد بن إسحاق البخارى، **التعرف لمذهب أهل التصوف** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية 1400 ه)، المقدمة، ص1.

6 الخادمي، محمد بن مصطفى، **البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية**، (الناشر: مطبعة الحلبي، د.ت) ج1، ص109.

عليك بالتصوف".[9] وقد نقل أبو بكر الكلاباذي عن الصوفية أقوالا عديدة في أصل تسمية الصوفي والصوفية، منها: "قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها. وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته. وقال قوم: إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم عليه، ووقوفهم بسائرهم بين يديه. وقال قوم: إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. وأنى كان اشتقاق هذا الاسم –التصوف– وأصله، فقد عرف به قوم يغلب عليهم الزهد والإعراض عن الدنيا وزينتها، همهم الآخرة وما يقرب إليها من قول أو عمل".[10]

من هو الصوفي الحق؟

إن أعرف الناس بالصوفي هو الصوفي، ولو رجعنا لأقوالهم وتعريفاتهم لتبين لنا جلياً منهج الصوفية وطريقهم. فقد سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ الصُّوفِيِّ فَقَالَ: "من لبس الصوف، وأطعم الهوى ذوق الجفا، وكانت الدنيا منه في القفا، وسلك منهاج المصطفى ﷺ ومتابعة النبي ﷺ اعتقادا، وأخلاقا، وأعمالا، وسيرة ولو عادية، إلى أن تركوا الأغيار لقصرهم النظر إلى رب الدار، فجعل الله قلوبهم معادن أسراره وخصهم من العالمين بطوالع أنواره، صفاهم الله من كدورات الأركان ورقاهم إلى الملكوت"[11].

وهذا الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ يوضح منهج الصوفية الحق، وسبب انفرادهم بهذا الاسم عن الخلق، فيقول: "إن كثيراً من الجهال، يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتباع والالتزام ما لم يأت في الشرع التزامه، مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدوه أو يقولوا به. فأول شيء بَنَوْا عليه طريقهم إتباع السنة واجتناب ما خالفها، حتى زعم مُذكِّرُهُم، وحافِظُ مأخذهم، وعمود نِحْلَتِهم أبو القاسم القشيري: إنهم إنما اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع. فذكر أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسَمَّ أفاضلهم في عصرهم باسم عَلَمٍ سوى الصحبة، إذ لا فضيلةَ فوقها، ثم سُمي من يليهم التابعون، ثم اختلف الناس، وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة

11 الخادمي، **بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية**، ج1، ص210.

عناية في الدين: الزهاد والعبَّاد. قال: ثم ظهرت البدع، وادَّعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعُبَّاداً، فانفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفسهم مع الله، والحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف، فتأمل تغنم، والله أعلم".[12]

إن هذه كلها صفات وأحوال أهل الصفة من الصحابة، الذين كانوا غرباء فقراء مهاجرين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم. قال الحسن البصري ﷺ "لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف، ووصفهم أبو هريرة وفضالة بن عبيد فقالا: كانوا يخرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه، فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث. وقال بعضهم: إنه ليؤذيني ريح هؤلاء، أما يؤذيك ريحهم – يخاطب رسول الله بذلك –، فكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى أمر الآخرة، وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: " تَصَوَف " إذا لبس الصوف، كما يقال: " تَقَمَّصَ" إذا لبس القميص"[13]. فكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذِّ النفوس وراحاتها، لشغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف همهم إلى محابِّه ومراضيه.

وخلاصة القول: الصوفي من صفا لله قلبه، وأقبل على الله بكليته، لا يلتفت إلى زخارف الدنيا، ولا تفتنه شهواتها، شرح الله صدره بنور الإيمان، فترقى في مدارج الكمال، وانكشفت له الحجب، فاستشرف سجف الغيب، وأبصر ما لا يبصره سواه.

نشأة التّصَوّفِ وبداية ظهُوره

لقد اختلف الناس في بدء ظهور هذه الكلمة "**صوفية**" واستعمالها، كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن الجوزي ولابن خلدون في هذا قول صريح: "إن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني

12 الشاطبي، إبراهيم بن موسى، **الاعتصام** (جدة: دار ابن عفان 1992م)، ج1، ص90.

13 السهروردي، عمر بن محمد، **عوارف المعارف** (بيروت: دار الكتب العلمية 1999م)، ج 1، ص49.

وغيرهما, وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري"[14] وقال السراج الطوسي في الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم، وهو اسم مستحدث: "إن سأل سائل فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم أجمعين- ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبّاد والزُّهاد والسيَّاحين والفقراء، وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ: صوفي، فنقول بالله التوفيق. الصحبة مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم- لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة، وذلك لشرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم — وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فلما نسبوا إلى الصحبة، والتي هي أجل الأحوال، استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة، وبالله التوفيق"[15].

وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فادعاء غير صحيح ومحال، لأنه في وقت الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يعرف هذا الاسم، وقد أدرك الحسن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي عنهم- وقد رُوي عنه أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق يكفيني ما معي"[16]، كما روي عن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء"[17].

مما تقدم نستنتج: أن التصوف منهج عملي، وسير قلبي كان حاضراً في حياة النبي- صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام، ولدى من تبعهم بإحسان، أما الاسم واشتقاقه فلا نرى في تقدم عهده أو تأخره قضية أو مشكلة، مادام مستمداً من الكتاب والسنة؛ وسلوك السلف الصالح من الصحابة، والتابعين. "وإنكار بعض الناس على هذا اللفظ بأنه لم يُسمع

14 انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون** (بيروت: دار الارقم 1406ه)، ص 467. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **تلبيس إبليس** (بيروت: دار القلم، د.ت)، ص 157.

15 السراج الطوسي، ***عبد الله بن علي، اللمع في التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود وغيره (القاهرة: دار الكتب الحديثة 1960م)***، ص 42، 43.

16 المصدر السابق، ص43.

17 المصدر السابق، الصفحة نفسها.

في عهد الصحابة والتابعين مردود، إذ كثيرٌ من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستُعملت ولم تُنكَر، كالنحو والصرف والفقه والمنطق..."[18].

التصوف بين الرفض والقبول

أولاً: الرافضون للتصوف جملة وتفصيلاً

يرى بعض الباحثين: إنه لا صلة للإسلام بالتصوف، معتبرًا انه نتاج تأثيرات دينية وعرقية لأقوام وحضارات دخلت في الاسلام، وتأثر بها بعضهم، وأنتج مزيجًا من التصورات، والنظريات المتداولة؛ فيرفض هذا المصطلح- التصوف- جملة وتفصيلاً، بل ويرفض الحوار والمناقشة حول تلك القضايا، بحجة أن مناقشتها قد يثبت وجودها، ويضفي عليها نوعاً من الشرعية المرفوضة من أساسها. فهذا أحد العلماء المعاصرين يجعل الصوفية فرقة ضالة كافرة، كالنصارى وغيرهم من الديانات والفرق التي لا تنتمي إلى الإسلام، فيقول: "فمن حاد عما بينته الرسل ونزلت به الكتب من عبادة الله، وعبد الله بما يملي عليه ذوقه، وما تهواه نفسه، وما زينته له شياطين الانس والجن، فقد ضل عن سبيل الله، ولم تكن عبادته في الحقيقة عبادة لله، بل هي عبادة لهواه: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾[19]. وهذا الجنس كثير في البشر، وفي طليعتهم النصارى، ومن ضل من فرق هذه الأمة، كالصوفية فإنهم اختطوا لأنفسهم خطة في العبادة، مخالفة لما شرعه الله في كثير من شعاراتهم. وهذا يتضح ببيان حقيقة العبادة التي شرعها الله على لسان رسول الله ﷺ، وبيان ما عليه الصوفية اليوم من انحرافات عن حقيقة تلك العبادة..."[20].

نلاحظ أن الباحث عد الصوفية من جملة الضالين عن الهدى كالنصارى وغيرهم من الفرق الضالة. كما نجد باحثاً آخر ينفي وجود تصوف شرعي، أو وجود متصوف يلتزم الكتاب والسنة، فيقول: "أين هي الطرق الصوفية القائمة على التقيد بالكتاب والسنة؟! مع العلم أن عامة المتصوفة قديما وحديثا يقولون: إن طريقتهم متقيدة بالكتاب والسنة، غير أننا لا نرى إلا طرقاً فلسفية، تقرر الزندقة؛ بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وأمثلها طريقة، التي تستعمل البدع،

18 عيسى، عبد القادر بن عبد الله، **حقائق عن التصوف** (حلب: مكتبة دار العرفان 2007م)، ص21 بتصرف.

19 سورة القصص: 28/ 50.

20 الفوزان، **حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين**، د.ط، ص2-3.

وتسير عليها في الذكر والعبادة. فالحاصل والواقع أن طريقة هؤلاء الأئمة الذين أعلنوا التقيد بالشريعة: مجهولة، غير معروفة"[21]. من أقوال هؤلاء يتبين لنا أن هناك من الباحثين من لا يثق بالصوفية جملة وتفصيلاً، ولا يفرق بين الغلاة والمعتدلين، ولا يميز بين القائمين على الشريعة والمفرطين فيها. بل ينسف كل قواعد التصوف التي أقر بها أئمة السلف من أهل الحديث: كالإمام أحمد، وسفيان الثوري، وابن تيمية، وابن القيم...

ولقد علمنا الإسلام أن الحوار والمناقشة قد يكونان سببا مباشراً لإقامة الحجة على الخصم، وليس رفض مناقشته فيما يعتقد؛ فالإنصاف يقتضي سماع الخصم ومحاورته، وليس نفيه وتسفيهه. ومن الإنصاف أن تقبل ما لدى خصمك من الحق والصواب، حتى لو كان فاسقاً، بل حتى لو كان مبتدعاً، بل حتى لو كان كافراً. ولذلك استنكر ابن تيمية– رحمه الله– على بعض المنتسبين للسنة فرارهم من التصديق، أو الموافقة على حق يقوله بعض الفلاسفة أو المتكلمين؛ بسبب النفرة والوحشة، أو إعراضهم عن بعض فضائل آل البيت، فقال –رحمه الله–: (لا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق.)[22].

ثانياً: أنصار التصوف والمدافعون عنه.

ويرى كثير من العلماء أن التصوف اسلامي نشأ من ذلك الزهد الذي عرف به محمد — صلى الله عليه وسلم – وصحابته واتباعه، وانسجاماً مع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي حملت معاني الزهد في الدنيا، وحب لقاء الله – تعالى– في الآخرة، وانتصروا للصوفية، وعذروهم في شطحهم، وأوَّلوا كل أقوالهم ومصطلحاتهم بما يوافق الشريعة والدين.

يقول الشيخ عبد القادر عيسى رَحِمَهُ اللَّهُ: "لعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون: إن تبرئة السادة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد، إنما هو تهرب من الواقع، أو دفاع مغرض عن الصوفية، بدافع التعصب والهوى، فهلاَّ

21 لطف الله عبد العظيم خوجه، **موضوع التصوف**، مجلة جامعة أم القرى سنة 1427هـ، ص69.

22 ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1986م)، ج2، ص 342.

تأتون بدليل من كلامهم يبرئ ساحتهم من هذه التهم؟ وإن ما نسب إليهم من أقوال تفيد الحلول أو الاتحاد، إما مدسوسة عليهم، أو مؤولة بما يلائم هذه النصوص الصريحة الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة..."[23].

ويعتذر الإمام السيوطي لما ورد على ألسنة بعض الصوفية بقوله: "... أما قول أبي يزيد البسطامي رَحِمَهُ اللَّهُ: "سبحاني، ما أعظم شأني" فهو في معرض الحكاية عن الله، وكذلك قول من قال: " أنا الحق" محمول على الحكاية، ولا يُظَنُّ بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، لأن ذلك غير مظنون بعاقل، فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات، ولا يُظَنُّ بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح، والعمل الصالح، والمجاهدة وحفظ حدود الشرع، الغلطُ بالحلول والاتحاد، كما غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام. وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعاتِ جهلةِ المتصوفة، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك..."[24].

وهذا شأن الإمام السيوطي، وجميع أئمة التصوف وعلمائهم، يؤولون كل ما تردد على ألسنة بعضهم، مما يوحي ظاهره بعقيدة الحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود، ويدافعون عن كل ما يوهم ظاهره مخالفاً الشريعة الإسلامية، إما باعتباره دس عليهم، أو بحمله على وجه من وجوه اللغة.

ثالثاً: العدل والإنصاف في الحكم على الصوفية والتصوف

لا يحملنا بغضنا للخصم، أو خلافنا معه في الرأي أو المعتقد على ظلمه، وعدم العدل معه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[25]. قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: "أي لا يحملنكم بغض قوم علي ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾، أي: عدلكم هو أقرب للتقوى من تركه"[26]. وقال ابن تيمية رحمه الله: "وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض

23 عيسى، **حقائق عن التصوف**، ص232.

24 السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **الحاوي للفتاوي** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر2004 م)، ج2، ص164.

25 سورة المائدة: 8/5.

26 ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع 1999م) ج 2، ص 35.

مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نهى صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف بمن يبغض مسلماً، بتأويل وشبهة، أو بهوى النفس؟ فهو أحق ألا يظلم، بل يعدل عليه"[27]. إن خلاف الرأي لا يفسد الود، والباحث المنصف يحرص على تحري الحقيقة وتقصيها أينما كانت، ويدور معها حيثما دارت، من غبر تأثر بهوى للنفس أو المشرب، والتريث في الحكم على القضية، حتى يضعها على محك الشرع وميزانه، وشرعنا واسع سمح، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحتمل الطبائع البشرية، والأمزجة الإنسانية، على مختلف أطوارها وأجناسها، وعلى مرّ عصورها؛ ولذلك تعددت المذاهب الفقهية، وكثرت طرق القراءات القرآنية، تمشياً مع كل بيئة زمانية أو مكانية أو اجتماعية؛ وهذه سنة الله في خلقه؛ فقد خلقهم مختلفين في الشرائع والمناهج والوجهات والمشارب، قال- سبحانه-: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[28]. وقال: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...**﴾[29]، وقال: ﴿**ولو شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...**﴾[30]. لذلك ينبغي للباحث المنصف أن يميز بين الصالح والطالح، والصادق والكاذب، والمخلص والمدعي من أتباع التصوف؛ فهم بشر مختلفون كبقية البشر: ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ...**﴾[31].

وإن دراسة التصوف دراسة تحليلية تاريخية متأنية تعيننا على معرفة طبيعة الحياة الروحية التي يُعْنَى بها الصوفية، وهي من أهم مقاصد الإسلام، كما تسعفنا -هذه الدراسة - في كشف أسرار الحياة، واستثمار عناصرها في تربية الجيل، وإصلاح المجتمع ومما لا شك فيه أن التصوف هو المنهج السلوكي والأخلاقي الذي يمثل العقيدة الإسلامية، والشريعة المحمدية بصورتها الناصعة، كما يترجم الصوفي الصادق بسلوكه القويم حقيقة القيم والأخلاق الإنسانية السامية.

27 **ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (الرياض: مؤسسة قرطبة 1406هـ)**، ج 5، ص 126.

28 سورة المائدة: 5/ 48.

29 سورة البقرة: 2/ 149.

30 سورة هود: 11/ 118 – 119.

31 سورة فاطر: 35/ 32.

منهج التصوف في الحياة: من حيث المعيشة والعبادة والأخلاق

أولاً: الاعتدال بالمعيشة عند الصوفية

من كان يظن أن التصوف يتمثل باللبس الخشن، والطعام الخشن وهجر الديار، والتخلي عن مسؤوليات الحياة، وتكاليف المعيشة، فهذا تصور يظلم فيه رجال التصوف الحق، الذين عاشوا حياتهم بين الناس، وعملوا بالمهن المختلفة، وخالطوا الناس، وصبروا على أذاهم، وكانوا كالجبال في إيمانهم، وكالنجوم في هدايتهم، وسمو أخلاقهم، يعرفون بصدق قولهم، ووفاء وعدهم، وأداء أماناتهم؛ تخلقوا بأخلاق الرسول الأعظم – صلى الله عليه وسلم –، ونهجوا سيره وسنته يلتزمون الحق وإن كان مراً، ويقفون عند حدود الله مهما كلفهم ذلك. أولئك هم أعلام التصوف الحق، لا كما يفعله بعض الأدعياء من المظاهر الخادعة، والسلوكيات الهابطة، من أجل التكسب، وأكل الدنيا بالدين.

لقد كان رسول الله ﷺ أزهد خلق الله في الدنيا وزخارفها، وأصحابه على سيرته وطريقته، يعدّون الدنيا وما فيها لهوا ولعبا، زائلة فانية، والأموال والأولاد فتنة ابتلي المؤمنون بها، فلم يكونوا يجعلون أكبر همهم إلا ابتغاء مرضاة الله، يرجون لقاءه وثوابه، ويخافون غضبه وعقابه، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه، ومجتنبين عمّا نهى الله عنه، سالكين مسلك الاعتدال، منتهجين منهج المقتصد، غير باغين ولا عادين، لا مفرطين ولا متطرفين. وتبعهم في ذلك التابعون لهم بإحسان، واتباع التابعين، أصحاب خير القرون، المشهود لهم بالخير والفضيلة، ولم يكن لهؤلاء كلهم في غير رسول الله– صلى الله عليه وسلم– أسوة ولا قدوة، الذي إذا وجد طعاما أكل وشكر، وإذا لم يجد رضي وصبر، وقد أخذ النبي–صلى الله عليه وسلم– من كل حلال بنصيب معلوم، فتزوج النساء، وأكل الطيب من المأكل، ولبس البهيج من الملبس: (وأحب – صلى الله عليه وسلم – لبس الثياب البيض، واكتسب جبّة رومية، ولبس حُلّة اشْتُرِيَتْ له بسبعة وعشرين بعيراً)[32].

ونهى عن التصدق بأكثر من ثلث المال، وأمر بحفظ حقوق النفس والأهل والولد، ونهى عن تعذيب النفس واتعاب الجسد والبدن، وحث أصحابه وأتباعه على طلب الحلال، وطلب الحسنات في الدنيا والآخرة. وقد نهى الله ﷻ

32 انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، **صيد الخاطر**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت المكتبة العصرية 2008م)، ص20

عن التعنت والتطرف في ترك الدنيا وطيباتها، في آيات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾[33]، و«كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل»[34].

وعن أنسرضي الله عنه: «أن خياطا دعا النبي ﷺ لطعام صنعه، فذهبت مع النبي ﷺ فقرب خبز شعير ومرقاً فيه دباء وقديد، فرأيت النبي ﷺ يتتبع الدباء من حوالي القصعة، فلم أزل أحب الدباء بعد يومئذ.»[35].

وعن جابررضي الله عنه: «أن النبي ﷺ سأل أهله الأدم، فقالوا: ما عندنا إلا خلٌّ، فدعا به، فجعل يأكل به ويقول: «نعم الإدام الخل»[36].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أُتِيَ رسول الله بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها»[37].

إن نظرة الصوفية للحياة الدنيا سواء من حيث المطعم أو الملبس أو المسكن...، هي نظرة توازن واعتدال، لا تُغْفِل الدنيا لحساب الآخرة، ولا الآخرة لحساب الدنيا، ناهجين في ذلك نهج رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، متمثلين قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا...﴾[38].

وقد قال الشيخ عبد القادر الجيلاني– رضي الله عنه– وهو ينصح أحد غلمانه: (يا غلام، لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح وما تسكن وما تجمع؛ كل هذا هم النفس والطبع، فأين هم القلب والسر؟، وهو طلب الحق – عز وجل–، همك ما أهمك، فاجعل همك ربك – عز وجل– وما عنده.) [39]. والصوفي ابن وقته يتماشى مع

33 سورة الأعراف: 7/ 32.

34 البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، 1987م)، كتاب الأطعمة، ج5، ص2071، رقم 5115.

35 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأطعمة، ج2، ص2072، رقم 5120.

36 النووي، يحي بن شرف، **مختصر صحيح مسلم**، تحقيق: محمد صالح الشوادفي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) كتاب الأطعمة، ج2، ص 207.

37 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأنبياء، ج3، ص1215، رقم3162.

38 سورة البقرة: 2/ 168.

39 الجيلاني، عبد القادر بن عبد الله، **الفتح الرباني**، تحقيق: نجاح عوض صيام (القاهرة: المقطم للنشر والتوزيع 1436هـ)، ص 24.

عصره ويساير التطورات والأحداث التي تطرأ فيه. يقول الإمام الشاذلي: (ليس بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، ولبس المرقعات، وإنما هو الصبر على الأوامر، واليقين والهداية)[40].

فجوهر التصوف ليس في الرسوم والأشكال، وإنما هو في النيات والأعمال. وكان الإمام الشاذلي نفسه، وهو الشيخ الصوفي المربي، يلبس الفاخر من الثياب، ويركب الفاره من الدواب، ويتخذ الخيل الجياد، "وقد دخل عليه يوما رجل فقير، عليه ملابس شعر– دليل على زهده وتقشفه – فقال له ذلك الرجل بعد أن أمسك بملابس الشاذلي الجميلة: يا سيدي! ما عُبد الله بهذا اللباس الذي عليك، فأمسك الشاذلي بملابس الصوفي الفقير فوجدها خشنة فقال: ولا عُبد الله بهذا اللباس الذي عليكم، لباسي يقول للناس: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: إني فقير إليكم فأعطوني"[41].

وفي هذا الجواب ما يدل على عمق فهم الشاذلي للتصوف الذي يدعو له، ومدى رغبته في نشر قيمه بين سائر الأوساط الإسلامية، وما ذلك إلا لأن طريق السير إلى الله ليست لها معالم في الملابس والمطاعم، كما سبق الذكر، وإنما معالمها في اتباع الكتاب والسنة، وسلامة القلب من الأمراض الباطنية. فالمبدأ الذي عمل به الصوفية يتلخص في كون التصوف وزينة الحياة لا تعارض بينهما، ولطالما أعطوا المثل الحي لذلك من حياتهم الخاصة، إذ كم من صوفي كُنّيَ بحرفته وصنعته؛ كالخرّاز والدقاق والدباغ والقواريري ...، وكم من صوفي كان أثرى أهل عصره، ولم تشغل هؤلاء أموالهم وتجارتهم عن الله، ولم تمنعهم أن يكونوا أزهد الناس، كما كان حال كثير من الصحابة الكرام؛ كعثمان وطلحة والزبير وغيرهم؛ رضوان الله عليهم أجمعين.

ثانياً: التحقق بروح العبادة عند الصوفية

التصوف منهج سلوكيّ وعباديّ، ثمرته تطهير النفس الإنسانيّة وتزكيتها، قائم على التأمُّل والتفكُّر في الخلق والخالق، وهو أصل في الإسلام، ينبثق من قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [42]. ومن قول النبي ﷺ في تعريف الإحسان وتوصيفه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ

40 ابن عجيبة، أحمد بن محمد، **إيقاظ الهمم في شرح الحكم** (القاهرة: المكتبة التوفيقية 2008 م)، ص 80.

41 **ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن (بيروت: دار الكتب العلمي 2005م) ص 134.**

42 سورة الشمس: 91/ 7 - 8 – 9 – 10.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 4. No. 3 July (1441-2020)

فَإِنَّهُ يَرَاك».[43] فالتربية الروحيّة في المجتمع الإنسانيّ، تعنى بصياغة شخصيّة الإنسان، تحفظ توازنها أمام مغريات الحياة، وهذا هو المقصد الأسمى من مقاصد القرآن والسنة، فتعاليم القرآن الكريم قائمة على الدعوة إلى الله ﷻ والإخلاص في عبادته، وتطهير النفس الأمّارة بالسوء، وبيان سبل الاستقامة والسلوك الموزون في الحياة.

إنّ الإيمان العقليّ المجرد بخالق الكون، ثم بالقيم والفضائل التي تنبعث من هذا الإيمان، لا يمكن أنْ يجعل الإنسان يقظ الحس، رقيق الوجدان، مستقيم السلوك، رباني المشاعر، متطلعاً إلى رضوان الله؛ إذ لابد من حضور القلب، وارتباطه بالفكر، ليتم التوصل إلى السمو الروحي، والإشراق النفسي، ولا يتم هذا إلا بالعكوف على العبادة، والتبتل والانقطاع إلى الله، والإعراض عن الدنيا، والعزوف عن لهوها ولعبها، وإدامة التفكر والتدبر والمراقبة والمحاسبة! وهذا هو منهج التصوف الذي يسلكه العارفون، ويدعون إليه أتباعهم؛ للتحقق بروح العبودية، ولب الإيمان.

يقول ابن خلدون: "هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملّة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصّحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحقّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامًّا في الصّحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفيّة والمتصوفة"[44].

وهكذا يظل التصوف الإسلامي يمثل روح الشريعة، وقلبها النابض، فبه يتحقق الخشوع في الطاعات، والخشية والخوف من الله عند التعرض للمعاصي والشهوات، والمراقبة والمحاسبة في خضم سكرة العيش والغفلات، ولا يتحقق المؤمن بلذة المناجاة في الأسحار، وطمأنينة الذكر والضراعة والاستغفار، حتى يسلك مسلك الصوفية الأبرار، الذين أوقفوا أنفسهم لخدمة العزيز الغفار.

ثالثاً: منزلة الأخلاق عند الصوفية.

43 ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم، مسند اسحاق بن راهويه (المدينة المنورة: مكتبة الإيمان 1991م)، ج 1، ص209.

44 ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص 328.

يقوم منهج التربية عند الصوفية على قاعدة التخلية والتحلية، أي تخلية النفس والقلب من الأخلاق القبيحة الذميمة، وتحليتها بالأخلاق الحميدة **الكريمة**. قال الإمام الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني"[45]، وقال بعضهم: "التصوف كله أخلاق، فمن زاد عليك بالأخلاق زاد عليك بالتصوف"[46]. وقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف: "علم التصوف علم الحقيقة أيضاً، وهو علم الطريقة، أي تزكية النفس عن الأخلاق الردية، وتصفية القلب عن الأغراض الدَّنية؛ وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل، وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل"[47].

فالصوفي الحق يتعامل مع الناس بحسن الخلق، يساعد المحتاجين، وينصر المستضعفين، ويأسو جراح المكلومين؛ فهو لا يعيش لذاته، بل تجده في قلب الحياة، في جميع أحوالها وتقلباتها، مع قبضها وبسطها، وسرورها وحزنها، يخدم نفسه كما يخدم الآخرين، يكتشف عيوب نفسه ليعالجها، كما يكشف ويعالج عيوب الآخرين، يروى عن الشيخ عبد الوهاب الشعراني –رحمه الله– أنه كان يقوم بإطعام وإكساء مئات المحتاجين، يواسيهم في فاقتهم، وفي مرضهم وحاجتهم.

التصوف بين منهج الضلال ومنهج الاعتدال.

أولاً: منهج الضلال

البون شاسع، والفرق واسع بين التصوف الذي نراه ونسمع به عند بعض الطرق الصوفية المعاصرة وشيوخها، وبين التصوف السني المؤسس على الاتباع للكتاب والسنة؛ ما أكثر المدعين! وما أقل الصادقين! **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾**[48] **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾**[49].

45 عيسى، **حقائق عن التصوف**، ص17.

46 عيسى، **حقائق عن التصوف**، ص18.

47 حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، **كشف الظنون** (بيروت: دار الفكر 2007م)، ج1، ص344.

48 سورة يوسف: 12/ 103.

49 سورة يوسف: 12/ 106.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 4. No. 3 July (1441-2020)

هناك من أطال لحيته، وكور عمامته، وادعى المعرفة والولاية والوصول، وهو أبعد ما يكون عن الأصول، تراه طامعاً في جاه ومكان، ومال وسلطان، يدعو الناس إليه ليقَبّلوا يديه، وينحنوا عند ركبتيه، ويبذلوا له النفيس من الهدايا والعطايا، تقرباً وتبركاً، وقلبه مظلم بالشهوات، وسِرُّهُ عارم بالنزوات، لا يردعه خوف، ولا يرده إيمان، يرتكب المحرمات في الخفاء، ويتظاهر بالذكر والتسبيح في العلن، وسوس له الشيطان، وزين له سوء عمله فرآه حسناً، التصوف منه براء، والإيمان منه خواء، غَرَّهُ الأمل والإمهال، واعتراه النفاق والخَبَال، فغفل عن الحق، وتمادى في الباطل.

ومنهم من جاوز الحد في أمر الكرامة والولاية، فأخذ يتمسح بالقبور، وينذر ويذبح لغير الله، ويستغيث بالأموات لطلب الشفاء، ورفع البلاء، ناسياً أو جاهلاً قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[50]. كما أن هناك التصوّف الفلسفي، الذي اخترقته تيارات: الغنوصيّة[51] والحلول [52] والاتحاد[53] ووَحْدة الوجود [54]، فابتعدت عن معايير العقل فضلاً عن الوحي، وأسقطت ظاهر الشريعة من الاعتبار.

تلك المعتقدات الوافدة من الهندوكية والمزدكية والبوذية، التي تسربت إلى الفكر الصوفي النقي، واعتنقها بعض رجال التصوف، من زلت به قدمه، وانحرف فكره، وجانَبَ العقيدة الصحيحة، فأسقط التكاليف والعبادات، وسول له شيطانه أنه بلغ المكانة التي يسقط عندها التكليف، وزين له سوء عمله، فترك الصلاة والصوم، وارتكب المحرمات، وهتك الحرمات، واعتبر الطاعة والمعصية سواء. هؤلاء وأمثالهم انتسبوا إلى التصوف والتصوف منهم براء؛ لأنهم وزنوا

50 سورة الشعراء: 26/ 97 – 80 – 81.

51 الغنوصيّة: تيار ومذهب فكري مُعقّد ذو فلسفات باطنية، يقوم على بذل جهده لاكتساب المعارف الفلسفية الوثنية، مُهملاً فكرة الوحي الإلهي. انظر: هاينس هالم، **الغنوصية في الإسلام**، ترجمة: رائد الباش (بيروت: دار الجمل 2003م)، المقدمة، ص6.

52 الحلول: حلول الله – عز وجل – في مخلوقاته، أو بعض مخلوقاته.، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. انظر: الكفوي، أيوب بن موسى، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش وغيره (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)، ص854. عيسى، **حقائق عن التصوف**، 231 وما بعدها.

53 الاتحاد: اتحاد الله – عز وجل – بمخلوقاته، أو ببعض مخلوقاته أي: اعتقاد أن وجود الكائنات أو بعضها هو عين وجود الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا. انظر: الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ص37. عيسى، **حقائق عن التصوف**، 231 وما بعدها.

54 وحدة الوجود: بمعنى أن هناك وحدة بين الوجود الإلهي وبين الموجود الإمكاني، فهما واحدٌ من حيث الحقيقة والماهيّة، فيكون الوجود حقيقة واحدة. المصدر السابق، الصفحة نفسها. انظر: حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج2، ص2005.

أعمالهم بميزان الفلسفات الشيطانية، فظنوا أنهم ارتقوا إلى مراتب الكمال، وبلغوا غاية النوال، وتم لهم سعد الوصال، فصار الناسوت عندهم لاهوتاً، واتحدت روح المخلوق بروح الخالق، تعالى الله عن زيغهم وزيفهم علوًا كبيراً. وهذا مثال لأحدهم في نشوة الاتحاد يجاوز بزعمه حد البشرية فيقول:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا *** نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتَني أبصرتهُ *** وإذا أبصرتهُ أبصرتَنا

يقول فيهم أئمة التصوف الحق: إنهم لاحظ لهم في الإسلام؛ قَالَ شيخ الطائفة الإمام الجنيد- رحمه الله-: "الطريق إِلَى الله ﷻ مسدودة عَلَى خلق الله تعالى إلا عَلَى المقتفين آثار رَسُول اللهِ ﷺ والتابعين لسنته، كَمَا قَالَ الله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**...﴾[55]".[56]

وقال الْحُسَيْن النوري لبعض أصحابه: (من رأيته يدعي مَعَ الله- عز وجل- حالة تخرجه عَنْ حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه عَلَى دينه)[57]. وقال أبو يزيد البسطامي: (لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، ويمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي، وعن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد؟ قال: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر الليث؛ لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به)[58]. فحقيقة التصوف السني هو الذي لا يخالف منهج العقيدة الصحيحة، التي عليها السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ليس فيه فلسفات ولا جدليات تؤدي إلى الانحراف؛ فقد جاءنا النبي- صلى الله عليه وسلم- بعقيدة بيضاء نقية صافية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. عن أَبِي الدَّرْدَاءِ- رضي الله عنه – قال: خرج

55 سورة الأحزاب: 33/ 21.

56 ابن الجوزي، **تلبيس إبليس** (بيروت: دار القلم 1982م)، ص 12.

57 المصدر السابق، ص151.

58 اليوسف، عبد الرحمن بن عبد الخالق، ***الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة*** (الكويت: مكتبة ابن تيمية 1986م)، ص 113.

رسول الله –صلى الله عليه وسلم– علينا فقال: «أيم الله لأتركنكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها سواء». فقال أبو الدرداء: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء».[59]

وعَنْ جَابِرٍ بن عبد الله ﷺ: أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب، قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، فوالذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني».[60]

ثانياً: منهج الاعتدال

إن منهج الاعتدال في التصوف الإسلامي هو الذي يتحقق بالشرع القويم القائم على الكتاب والسنة؛ ولا يعدو أنْ يكون خطًّا فكريًّا وروحياً، وُجد في المجتمع الإسلاميّ منذ البعثة النبوية، ومرَّ بمراحل وتطوّرات مهمّة، وأثناء تطوّره تشكّلت الطرق التي يمكن اعتبارها مناهج متنوعة لتربية الرّوح، وتزكية النفس، وتطهير القلب، ولها دور فاعل في ميدان التربية، وعلم النفس والاجتماع والسلوك، تسهم في حل جميع المشكلات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسلوكية، ولها قصب السبق في ميادين الجهاد والتحرر، لأنها تمثل لب الإسلام وروحه. وقد أخرجت لنا هذه الطرق كبار المجاهدين في التاريخ الإسلامي، من أمثال صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين زنكي، وسعيد الكردي النقشبندي، وشامل النقشبندي، وعبد القادر الجزائري...

ومن أشهر هذه الطرق:

- **الطريقة القادرية:** التي أسّسها الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت: 561 هـ) .
- **الطريقة النَقشبندية:** التي أسسها الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي (ت: 791 هـ).
- **الطريقة الرُفاعية:** أسسها الشيخ أحمد الرفاعي (ت: 578هـ).

59 ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو، **السُّنَّة**، تحقيق: ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي 1980م)، ج 1، ص26، رقم47.

60 ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، **مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**، تحقيق: عامر الأعظمي (بومباي :طبع الدار السلفية 2007م)، ج5، ص123، رقم 12642.

مجلة الرسالة
AL-RISALAH JOURNAL
ACADEMIC BIANNUAL REFEREED JOURNAL
KULLIYYAH OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE AND HUMAN SCIENCES
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
e-ISSN: 2600-8394 VOL. 4. No. 3 July (1441-2020)

- **الطريقة الشاذلية:** نسبة إلى مؤسسها ابي الحسن الشاذلي (ت:686هـ).
- **الطريقة المولاوية:** نسبة إلى مؤسسها مولانا جلال الدين الرومي (ت: 1273م).

لقد كان لأتباع هذه الطرق دور كبير بنشر الدعوة الإسلامية في أماكن كثيرة من بلاد العالم؛ يقول ماسينيون– واصفاً سبيل انتشار الإسلام في القارة الهندية–:(إن الإسلام لم ينتشر في الهند بواسطة الحروب، بل انتشر بفضل الصوفية والطرق الكبرى، هي الجشتية، والكُبْرَوية، والشَّطارية، والنقشبندية)[61]. والفضل ما شهدت به الأعداء! ويرجع الفضل في الانتشار الواسع للإسلام في بقاع شتى من العالم إلى الطرق الصوفية، وذلك بسبب إقبال الناس عليهم، واختلاطهم بالطبقات الشعبية، وعيشهم بين العامة والفقراء، حيث قدموا صورة صادقة للإسلام، تتمثل بالتقوى والصلاح، إلى جانب الخدمات الاجتماعية، وألوان البر والإحسان، والمواساة والمؤاخاة بين عامة الناس وخاصتهم.

ولاتزال "**جماعة الدعوة والتبليغ** "[62]، التي تنتمي إلى الطريقة الجشتية تطوف بقاع الأرض، تدعو الناس إلى الإسلام، وتقدم نموذجاً حياً لحياة الصحابة، بتمثلهم السنة النبوية القولية والفعلية في مأكلهم ومشربهم وملبسهم، ونومهم ويقظتهم، وأساليب دعوتهم أما عن دور الصوفية في الحياة السياسية، فلا أحد ينكر جهود بعض مشايخ الصوفية في الحياة السياسية، فقد قاد الأمير عبد القادر الجزائري ثورة الجزائر على الاحتلال الفرنسي، وقامت ثورة الشيشان ضد المغتصب الروسي، بقيادة أتباع الطريقة النقشبندية والقادرية، كذا في البوسنة والهرسك ومقدونيا كان معظم الثوار من الصوفية.

الخاتمة:

61 ماسينيون لويس، **بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي**، (باريس، سنة 1954م)، ص 87-86.

62 جماعة الدعوة والتبليغ تأسست عام 1926 م؛ حيث كان مؤسسها محمد إلياس أول أمير لها حتى وفاته، ثم ابنه محمد يوسف، ثم إنعام الحسن. انتشرت الجماعة سريعًا في الهند ثم في باكستان وبنغلاديش، وانتقلت إلى العالم الإسلامي، والعالم العربي، وبعد ذلك انتشرت دعوتها في معظم بلدان العالم، ولها جهود واضحة في دعوة غير المسلمين.

نستنتج من بحثنا هذا الحقائق التالية: إن التصوف القائم على الكتاب والسنة، يمثل روح الإسلام وحياته ومقاصده. ورجال التصوف الحق هم العلماء العاملون العارفون بتزكية النفوس، القائمون بفقه الشريعة، والحريصون على تحقيق أهدافها، فهم المقتدون بسيد الأنبياء– عليه أفضل الصلاة وأتم السلام– كما أنهم يمثلون المنارات المضيئة على طريق الحق والدين، يهدون السالكين، ويدلون الحائرين في رحلة الحياة.

التوصيات:

وصيتي لأهل العلم وطلابه ما يلي:

- الدعوة لسلوك هذا المنهج التربوي، الذي لا يستغني عنه مسلم يرجو النجاة في الآخرة، لأنه المنهج الذي يُعنى بتزكية النفس وتنقيتها من الأمراض الباطنة، والأهواء الزائغة.
- التزود بالعلم الشرعي، وفهم العقيدة الصحيحة، والتفقه بأصول الدين، قبل سلوك طريق التصوف؛ ليكون على بصيرة في سيره.
- العمل على تنقية مناهل التصوف مما يشوبها من الأفكار الضالة، والمشارب المنحرفة عن الشرع الحنيف.
- نشر الفكر الصوفيّ السليم الذي تضبطه ضوابط القرآن الكريم، والسّنة النبويّة الشريفة.
- نصرة العلماء الربانيين، والتعاون معهم، والوقوف بوجه الضالين والمنحرفين والجاهلين من أدعياء التصوف، وتحذير الناس من ضلالاتهم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إستانبول: دار الدعوة، د.ت).
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد (ت: 849م)، **مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**، تحقيق: عامر الأعظمي (بومباي :طبع الدار السلفية 2007م).

- ابن أبي عاصم، أحمد بن عمرو (ت: 900م)، **السُّنَّة**، تحقيق: ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي 1980م).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت: 1201م)، **تلبيس إبليس** (بيروت: دار القلم، د.ت).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت: 1201م)، **صيد الخاطر**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي (بيروت المكتبة العصرية 2008م).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت:1328م)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تحقيق: محمد رشاد سالم (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1986م).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 1406م)، **مقدمة ابن خلدون** (بيروت: دار الارقم 1406هـ).
- ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم (ت: 853م)، مسند اسحاق بن راهويه (المدينة المنورة: مكتبة الإيمان 1991م).
- ابن عجيبة، أحمد بن محمد (ت: 1809م)، **إيقاظ الهمم في شرح الحكم** (القاهرة: المكتبة التوفيقية 2008 م).
- ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد (ت:1309م)، **لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن** (بيروت: دار الكتب العلمي 2005م).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت: 1373م)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع 1999م).
- الكلاباذي، محمد بن إسحاق البخارى (ت: 990م)، **التعرف لمذهب أهل التصوف** (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية 1400 هـ).
- الأنصاري، زكريا بن محمد (ت: 1520م)، **على هامش الرسالة القشيرية** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت).
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: 870م)، **صحيح البخاري**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، 1987م).

- الجيلاني، عبد القادر بن عبد الله (ت: 1166م)، **الفتح الرباني**، تحقيق: نجاح عوض صيام (القاهرة: المقطم للنشر والتوزيع 1436هـ).
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت: 1657م)، **كشف الظنون** (بيروت: دار الفكر 2007م).
- الخادمي، محمد بن مصطفى (ت: 1763م)، **البريقة المحمودية في شرح الطريقة المحمدية**، (الناشر: مطبعة الحلبي، د.ت).
- الزمخشري، محمود بن عمرو (ت: 1144م)، **أساس البلاغة**، تحقيق: باسل عيون السود (بيروت: دار الكتب العلمية 1998م).
- السراج الطوسي، عبد الله بن علي (ت: 988 م)، **اللمع في التصوف**، تحقيق: عبد الحليم محمود وغيره (القاهرة: دار الكتب الحديثة 1960م).
- السهروردي، عمر بن محمد (ت: 1234م)، **عوارف المعارف** (بيروت: دار الكتب العلمية 1999م).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 1505م)، **الحاوي للفتاوي** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر2004م).
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (ت: 1388م)، **الاعتصام** (جدة: دار ابن عفان 1992م).
- عيسى، عبد القادر بن عبد الله (ت: 1991م)، **حقائق عن التصوف** (حلب: مكتبة دار العرفان 2007م).
- الفوزان، **حقيقة التصوف وموقف الصوفية من أصول العبادة والدين**، د.ط، ص2-3.
- الكفوي، أيوب بن موسى (ت: 1094م)، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش وغيره (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).
- لطف الله عبد العظيم خوجه، **موضوع التصوف**، مجلة جامعة أم القرى سنة 1427هـ.
- ماسينيون لويس (ت: 1962م)، **بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي**، (باريس، سنة 1954م).
- المدني، مصطفى بن إسماعيل، **النصرة النبوية**، طبع بهامش **اتحاف السادة المتقين** للزبيدي المرتضى، (القاهرة: مطبعة الشرفية 1316هـ).

- النووي، يحي بن شرف (ت: 1277م)، **مختصر صحيح مسلم**، تحقيق: محمد صالح الشوادفي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت: 875م)، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- هاينس هالم، **الغنوصية في الإسلام**، ترجمة: رائد الباش (بيروت: دار الجمل 2003م).
- اليوسف، عبد الرحمن بن عبد الخالق، **الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة** (الكويت: مكتبة ابن تيمية 1986م).